مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٩: ١١–١٤)

يا إخوةُ إنَّ المسيحَ إذ قد جاءَ رئيسَ كهنةٍ للخيراتِ المستقبَلَةِ فبمسكنٍ أعظمَ وأكمَلَ غيرِ مصنوعٍ بأيدٍ أي ليس من هذه الخليقة* وليس بدمِ تُيوسٍ وعُجولٍ بل بدمِ نفسِهِ دخلَ الأقداسَ مرَّةً واحدة فوجد فداءً أبديًّا* لأنَّه إن كان دمُ ثيرانٍ وتيوسٍ ورَمادُ عِجلةٍ يُرشُّ على المنجَّسينَ فيقدِّسُهم لتطهيرِ الجسد* فكم بالأحرى دمُ المسيحِ الذي بالروحِ الأزليِّ قرَّبَ نفسَهُ للهِ بلا عيبٍ يطهِّرُ ضمائرَكم من الأعمالِ الميِّتةِ لتَعبُدوا اللهَ الحيَّ.

الإنجيل

(مرقس ١٠: ٣٢–٤٤)

في ذلك الزمان أخذ يسوعُ تلاميذَه الإثني عشَرَ وابتدأ يقول لهم ما سيعرِضُ له: هوذا نحن صاعدون إلى أورشليمَ وابنُ البشر سيُسلَم

البرية في المعنى الروحي

القديسة مريم المصرية التي تعيّد لها الكنيسة في الأول من شهر نيسان وفي الأحد الخامس من الصوم الأربعيني المقدّس هي من بين الذين صاروا، في وجدان الكنيسة، رموزاً للتوبة. في سيرة البارّة أنها، وبعد حَدَث توبتها المؤثّر جداً (راجع سيرتها في السنكسار)، هجرت العالم وما كان لها فيه من تألّق وغنى، إلى عمق صحراء الأردن حيث قضت باقي حياتها في نسك وجهاد يصعب وصفهما. سطحياً قد يُنظَر إلى ردة فعل أمّنا البارة مريم المصرية، وغيرها من التائبين الكبار، على أنّها هَجرٌ لـ«العالم الشرير» إلى حالة «أكثر أماناً». أما اختبار الكنيسة وخبرات القديسين والقدّيسات الذين سكنوا القِفار فتقول عكس ذلك: الخروج إلى البرّية ليس نفوراً من العالم على اعتبار أنه شرير. التائب يدين نفسه وأهواءه، لا العالم وظروفه. الناسك في البرّية يسعى إلى أن يستعيد، في ذاته، حَدَث خروج شعب الله من حال العبودية لفرعون (أي حال «الاستعباد» للخطيئة ومُسبِّباتها) إلى أرض الميعاد، التي لا سيّد فيها سوى الله. هذا الخروج احتاج أربعين سنة في الصحراء، وهذه ترمز إلى الحالة الانتقالية من العبودية إلى الحرّية. هذا هو، عملياً، ما يُراد من الصوم الأربعيني المقدّس: البرّية، وإن كانت بالمقارنة مع العالم مكاناً قفراً موحشاً، إلا أنها في الوقت عينه أرض سكينة وهدوء، لا تلوّث فيها ولا تشويش. أما في معناها الروحي فهي «المكان» (أو الحال) الأمثل لتَقصّي مُسبِّبات الخطيئة، في الذات لا في الظروف المحيطة، وتمييزها وضبطها أو التخلّص منها.

العدد ١٤/٢٠١٤
الأحد ٦ نيسان
الأحد الخامس من الصوم
(أحد القديسة مريم المصرية)
تذكار القديس أفتيشيوس
رئيس أساقفة القسطنطينية
اللحن الثامن
إنجيل السَحَر الثامن

قلنا إذاً ان البرّية ترمز، في الوجدان الكنسي، إلى حقبة من التاريخ المقدّس، إلى فترة زمنيّة احتاجها العبرانيون لـ«يعبُروا» من حالة الجماعة المُستَعبَدة، التي ما عادت تعرف إلاّ ثقافة الخنوع، إلى أمّة حرّة ثقافتها شرائع الله. أما في الوجدان الشخصي للمؤمن فهي حالة الهَجر الإرادي لكلّ ما يُبعد عن الله، واستسلام إرادي أيضاً لإرشاد الله ولتجليات رحمته. بمعنى آخر، المؤمن لا يحيا البرّية الروحية في

إلى رؤساءِ الكهنة والكتبةِ فيحكمون عليهِ بالموت ويُسلِمونَهُ إلى الأمم* فيهزأون به ويبصُقون عليهِ ويجلِدونه ويقتُلونه وفي اليوم الثالث يقوم* فدنا إليهِ يعقوبُ ويوحنَّا ابنا زَبَدى قائلَيْنِ يا معلّمُ نريد أن تصنعَ لنا مهما طلبنا* فقال لهما ماذا تريدان أن أصنعَ لكما* قالا له أعطِنا أن يجلِسَ أحدُنا عن يمينك والآخرُ عن يسارك في مجدك* فقال لهما يسوعُ إنَّكما لا تعلمان ما تطلبان. أتستطيعان أن تشربا الكأسَ التي أشرَبُها أنا وأن تَصْطَبِغا بالصِبْغَةِ التي أصطبِغُ بها أنا* فقالا له نستطيع. فقال لهما يسوعُ أمَّا الكأسُ التي أشربُها فتشربانها وبالصِبغَةِ التي أصطبِغ بها فتصطبِغان، وأمَّا جلوسُكما عن يميني وعن يساري فليس لي أنْ أُعطِيَهُ إلاَّ للذين أُعِدَّ لهم* فلمَّا سمع العَشْرَةُ ابتدأوا يغضَبون على يعقوبَ ويوحنَّا* فدعاهم يسوع وقال لهم قد علِمتم أنَّ الذين يُحسَبون رؤساءَ الأمم يسودونَهم، وعُظَماءَهم يتسلَّطون

القفر بالضرورة بل اينما كان في العالم: يكفي أن يعقد العزم على أن لا يلتزم شريعةً وحكمةً إلا شريعة الله وحكمته. وهذا هو بالتحديد ما نتدرّب عليه في الصوم الفصحي، وكلمة «فصح» تعني أيضاً «عبور». ومتى حرّر المؤمن ذاته من تأثير العالم عليه، وإن كان ساكناً في العالم ومتفاعلاً معه، لا يعود حبّ التسلّط يعنيه إذ يعي أن لا سيّد إلا الله، ولا تعود إدانة الآخرين تعنيه إذ يعي كم أنّه بحاجة لأن يحصر اهتمامه في أمراض نفسه وزلاّتها. طبعاً قد لا يكون الطريق سهلاً، ولعل الحديث عن «البرّية الروحية» أسهل بكثير من عيشها. نقول هذا لأن موضوع خلاص النفس أخطر وأدقّ بكثير من أن يُقارَب إلا بكل موضوعية وواقعية. ولأنّ مقاصد الله وتدبيراته الخلاصية ليست تخيّلات وأوهاماً بل حقيقة وواقعاً، يعقد المؤمن عزمه متّكلاً على أمرين: أولهما وعد الله للعابرين إليه بأن لا يتركهم وحيدين، كما في سفر الخروج: «وكان الربُّ يسيرُ أمامهم نهاراً في عمود سَحاب ليهديَهم في الطريق، وليلاً في عمودِ نار ليَضيءَ لهم، لكي يمشوا نهاراً وليلاً» (١٣: ٢١-٢٢)، وثانيهما اختبار الكنيسة التي هكذا تقدّس قدّيسوها، أكانوا نسّاك قفر أو عائشين في العالم. شعب إسرائيل صار في البرّية شعباً جديداً، وريثاً لا عبداً، مَحصياً من الله (عدد ١: ١-٣). الله يُحصي شعبه ليُفهمنا بأن الذين سلّموا إليه ذواتهم يلتزمهم واحداً واحداً، وينظّمهم ليصبحوا «أمّة» لا «مجموعة أفراد». لعلّ هذا ما يرمز إليه التعداد والإحصاء في سِفر العدد في العهد القديم.

بالعودة إلى المقاييس الأرضية التي باتت تتحكّم بالإنسان، الإنسحاب إلى هذه «البرّية الروحية» افتقار: فالمال والسلطة والعلم والمكانة الاجتماعية والإغواء وغيرها، هي «ثروات» بات يرى فيها الإنسان خلاصه، وحصر الاهتمام بالله يقتضي التخلّي عنها. خلاص الله موعود، أما هذه فمتعتها ملموسة، فوريّة. هذا بالمنظور المحدود الذي صار وجهاً من أوجه مرض الإنسان منذ السقوط. الإنسان ميّال إلى أن يضعف، بل وأن يتذمر من تدبيرات الله التي لا طاقة له على استيعابها عقلياً. «ماذا صَنَعْتَ بنا حتى أخْرَجتَنا من مصر؟ أليس هذا هو الكلام الذي كلّمناك به في مصر قائلين: كُفَّ عنَّا فنخدِمَ المِصريين؟ لأنَّه خيرٌ لنا أن نخدِمَ المِصريينَ من أن نموتَ في البرّية»، قال العبرانيون لموسى إذ رأوا جيوش فرعون تلاحقهم. إذ ذاك كلّمهم الله بصوت موسى قائلاً «لا تخافوا. قِفوا وانظُروا خلاص الربِّ الذي يصنعه لكم اليوم. فإنّه كما رأيتم المصريين اليوم، لا تعودون ترَونَهم أيضاً إلى الأبد. الرب يُقاتل عنكم وأنتم تصمُتون» (خر ١٤: ١١-١٤). يعلّمنا القديس مكسيموس المعترف ان الإنسان بعد السقوط بات يخاف من كل ما لا يستوعبه عقله.

صحيح أن الله وضع لنا هذه «البرّية الروحية» للتحرّر من كل ما يستعبدنا، ولكنه لم يردها لنا إقامة دائمة بل معبراً إلى «أرض جيدة تفيض لبناً وعسلاً» (خر ٣: ٨). والله يبقى أميناً لمقاصده مهما تخلّى الإنسان عن أمانته، ويبقى مشدّداً المتردّدين بعلامات خلاصه مُعلناً مجده بقوة (عدد ٢٠: ١١). تجليات مجد الله، متى صفّى

عليهم* وأمّا أنتم فلا يكونُ فيكم هكذا* ولكن مَن أراد أنْ يكونَ فيكم كبيراً فليكُنْ لكم خادماً* ومَن أراد أن يكونَ فيكم أوَّلَ فليكُنْ للجميع عبداً* فإنَّ ابنَ البشر لم يأتِ ليُخدَمَ بل ليخدِمَ وليبذُلَ نفسَهُ فداءً عن كثيرين.

تأمل

«قالا له: أعطِنا أن يجلس أحدنا عن يمينك والآخر عن يسارك في مجدك».

يجب ألا يضع أحدٌ هدفاً لحياته كيف سيتسلّق منبر السلطة وسيتمتّع بالمنصب، بل كيف سيصبح باراً وإنساناً حكيماً. مرات كثيرة تجذبنا السلطة إلى أعمالٍ مخالفة لناموس الله. إذا ما استلمنا منصباً رئاسياً، فنحن نحتاج إلى شجاعة نفس كبيرة لكي نمارس إدارةً صالحة ولا نعمى بالكبرياء الذي يُولِّده المجد.

كلّ مَن هو بلا أهميّة وبلا مجد يفكّر لا إرادياً بتحوّلات الأوضاع الإنسانية وبطلان الأشياء الأرضية، وكلّ مَن هو معروف وممجَّد يشبه ذاك الذي يؤمَر بينما يكون المؤمن عقله وقلبه ليراها، تعزّيه وتقوّيه مهما اشتد الصراع أو طال، إذ يرى فيها يقيناً بخلاص الرب وغلبته النهائية. عَيش البرّية روحياً هو إذاً فرصة للمؤمن المجاهد للتعمق في فحص قلبه وتعزيز التمسك برحمة الله والارتكان حصراً إلى حكمة تدبيره. هذا ويبقى الإنسان عُرضة للتراخي من جديد، لا سيّما متى بدأ يشعر بالاستقرار الروحي إن جاز التعبير. هنا خطورة بالغة، إذ تتسلّل إليه الأهواء التي كان قد تخلّص منها بل وغالباً ما تتطوّر إلى أشرّ (لو ١١: ٢٤-٢٦). الخطر إذاً وارد، نعم، ولكنّ تفاديه وارد أيضاً بل وممكن، باليقظة وبتذكّر صنائع الله على الدوام، كما في سِفر المزامير (١٤٣: ٥-٦). ما علينا إذاً إلاّ أن نتمسّك بثقة الرجاء، على ما يقول الرسول بولس (عبرانيين ٣: ١-٦)، وعَيش الإنجيل وحياة الكنيسة هو السبيل الأمثل «إلى أن يُسكب علينا روح من العلاء فتصير البرّية بستاناً» (إشعياء ٣٢: ١٥).

الموت قبل الموت

نقرأ في خدمة الأحد الخامس من الصوم، المعيَّن للقديسة مريم المصرية: «لقد ألجمتِ كل نهضات الجسد بالأتعاب النسكية وأوضحتِ معقول نفسكِ شهماً لأنكِ مذ صبوتِ إلى مشاهدة صليب الربّ صلبتِ ذاتكِ للعالم يا دائمة الذكر...». أمرٌ مشابه نقرأه أحياناً على جدران بعض الأديرة الأرثوذكسية حيث نجد العبارة القائلة: «إن مُتَّ قبل أن تموت، فلن تموتَ عندما تموت». ماذا يعني أن يموت الإنسان وهو في الجسد؟ أو أن يموت وهو ما زال حيًّا يُرزق؟

ما ذكرناه في بداية حديثنا يدلّ على أنّ الإنسان، لكي يرث الحياة الأبدية، عليه أن يجرّد نفسه من الأهواء، وأن يموت عن الخطيئة، وأن يترفّع عن اللّذّات صالباً ذاته عن العالم: «يا ربُّ أنا غنيّ بالأهواء واللّذات ولعازرُ مسكين بفقدان الفضائل لكن أنت خلّصني» (من الأودية الثالثة لقانون الأحد الخامس). إذاً، أن نموت قبل أن نموت تعني أنّه علينا الموت ونحن أحياء عن كلّ ما يمكنه إبعادنا عن الله من لذّات جسديّة، سُلطَويّة، ماديّة... أي عن كلّ ما يشوِّشنا قولاً وفعلاً، وحينئذٍ لن نموت عندما نموت أي سنرث الحياة الأبديّة بعدما نكون قد تخطّينا سنواتنا الأرضيّة وأتممنا كلّ عملٍ صالحٍ يليق بالله، فنملك معه في ملكوته.

قد نفكّر في أنّ ما نقوله هنا هو صعب المنال ولا يمكن لأحدٍ القيام به سوى الرهبان الذين هم خارج العالم ولا تواجههم التجارب نفسها التي تعترض طريقنا كلّ يوم، لا بل كلّ لحظة. ننسى مراراً أنّ تجارب كلٍّ منّا تختلف عن الآخر، وأنّ الرهبان هم خارج العالم لكنّهم يواجهون تجارب مؤلمة، وهذا الأمر نقرأه في سِيَر آباء البريّة القدّيسين على مثال القديس أنطونيوس وغيره الذين وصل بهم الأمر أحياناً إلى مصارعة الشيطان نفسه.

أمّا في ما يختص بتجاربنا نحن، فتتعدّد شكلاً ومضموناً، وفي غالبيّة الأحيان لا ننتبه إليها أو ننكر أنّها موجودة لأنّ الشيطان يجعلنا نظنّ بأنّه هو نفسه غير موجود وذلك حتى يستطيع أن يتفنّن باستدراجنا نحوه من دون أن ندري. القديس أفرام السرياني،

مع امرأةٍ شابة وفائقة الجمال بألا ينظر إليها أبداً برغبة شريرة، هل هذا ممكن؟

إذاً، السلطة هي هكذا، لذلك ولّدت الكبرياء لدى كثيرين وأوجدت الغرور وأثارت الغضب وأفلتت لجام اللسان وزادت الأهواء كما تذكي الريح القوية النار، مُغرقةً إياهم في النهاية في عمق الشرّ المخيف. هكذا فإنّ كلّ شخص من ذوي المقامات لا يحيا باللياقة والحشمة والرصانة ومعرفة مسؤولياته، يكون في صدد إعداد دماره. وبقدر ما يكون المنصب أكبر، بهذا القدر يكون صاحبه معرّضاً لأخطار كبيرة. لا تنسوا أنّ الشعب يدين أصحاب المقامات كلّ لحظة، وإذ لديهم مثل هذا الديّان القاسي فليست لديهم لحظة ليتوقّفوا ويتنفّسوا! الأسوأ أنهم حتى ولو قاموا بإنجازات كبيرة فإنهم سيدخلون إلى ملكوت السموات بصعوبة، لأنه لا شيء يجرّنا إلى الخراب بقدر رأي الآخرين بنا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

في صلاته الشهيرة التي نردّدها في غالبيّة صلواتنا خلال الصوم الكبير المقدّس، يطلب إلى الله العَتقَ من «روح البطالة والفضول وحبّ الرئاسة والكلام البطّال». صحيح أنّ القديس أفرام كان ناسكاً، ومن الممكن أنّ هذه الخطايا التي يطلب العَتق منها قد تصيب النسّاك أكثر من غيرهم، ولكن ألا تصيبنا نحن أيضاً؟

مَن منّا لا تصيبه روح البطالة، أو بكلام آخر روح الكسل والفتور؟ مَن منّا لم يُجرَّب ولو مرّةً بألاّ يذهب إلى القداس الإلهي بسبب الإرهاق الناتج عن العمل كلّ الأسبوع، ولكن في الوقت نفسه إذا أتتنا دعوة إلى رحلة ما في وقت القداس مثلاً نقوم ونتنشَّط ونذهب قائلين إنّ القليل من المرح يجعلنا ننسى تعب الأسبوع. ألم يقل الربّ: «تعالَوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم» (مت ١١: ٢٨)؟

مَن منّا لم يُجرَّب بالفضول أو «الحشرية»؟ إذ مراراً كثيرة نترك أعمالنا ونتلهى وراء أخبار صغيرة عن جيراننا وأصدقائنا، وهذا الأمر قد غذّته في الآونة الأخيرة وسائل التواصل الاجتماعيّ.

مَن منّا لم يُصَب بحبّ الرئاسة؟ فنحزن عندما يحصل أحد ما على ترقية أو مكافأة ونقول إنّه كان يجب أن تكون من نصيبنا لأنّنا أفهم وأخبر، بدلاً من أن نفرح له ونسعى إلى تطوير مواطن الضعف فينا لكي نحصل بدورنا على ترقية مماثلة. أو نُجرَّب بأن نسعى لتكون كلّ الأمور بيدنا نحن فقط، نتحكّم بها ونحاكم مَن نشاء، متناسين قول بولس الرسول: «مَن أنت يا مَن تدين عبداً أجنبيًّا، إنّه لمولاه يثبت أو يسقط» (رو ١٤: ٤). والأجنبي هنا لا يعني أنّه غريب، إنّما يعني أنّ الآخر ليس عبدنا إنّما هو عبد سوانا، أي الله، ولا يحق لنا نحن أن ندينه بل مولاه يدينه.

مَن منّا لم يمرِّن لسانه في وقت من الأوقات على الكلام البطّال بدلاً من الكلام الذي يبني؟ فإننا مستعدّون في غالبيّة الأوقات أن نجلس ونتحدّث في مواضيع لا تفيد بشيء لساعات، ولكن نستعصب أن نصمت ونمرِّن آذاننا على الإصغاء إلى كلام الربّ، وألسنتنا على التحدّث بما يفيد الآخر ويبنيه.

في النهاية، جهادنا عظيم، ولكنّه يحتاج إلى عمَلةٍ دؤوبين وغير خانعين. علينا أن نميت ذواتنا بالتوبة، وأن نعود إلى الرب القائل على لسان نبيّه يوئيل: «ارجِعوا إليَّ بكلِّ قلوبِكم وبالصَّومِ والبكاءِ والنوح، ومزِّقوا قلوبَكم لا ثيابكم وارجِعوا إلى الربِّ إلهكم لأنَّه رؤوفٌ رحيمٌ، بطيءُ الغضبِ وكثيرُ الرأفةِ ويندم على الشَّرِّ» (٢: ١٢–١٣).

سبت لعازر

وأحد الشعانين

بمناسبة أحد الشعانين الواقع الأحد القادم في ١٣ نيسان تُقام خدمة السَحَر يليها قداس الشعانين في كافة كنائس الأبرشية. كذلك تُقام خدمة سبت لعازر في كافة الكنائس صباح السبت ١٢ نيسان.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb